ابنـــتى ...!

للأستاذ محمد سعيد العريان

مرحباً يا عزيزتى الصغيرة !

ها أنتِ ذى يا ابنتى أمام عينىّ حقيقةً أراها وكنتِ حلماً من أحلامى !

وهأنذا ألقاكِ بعد صبرٍ صابر وجهدٍ جاهد وطول تشوُّف وارتقاب ؟

مالك مغمضةَ العينين أكثر ما تكونين يا ابنتى كأنما لا تجدين فى دنياك الجديدة ما يغرى على اليقظة والنظر ؟

ومالك صامتةً أبداً فما تفتحين فمك إلا للبكاء كأنما تشعرين بالغربة فى هذا العالم الجديد ؟

وما لهذه اليدين والرجلين دائبات على الحركة أبداً كأنما تحاولين الفكاكَ من قيد غير منظور ؟

أين كنتِ يا ابنتى ؟ ومن أين جئتِ ؟ وإلى أين المسير ؟

أهذا يوم ميلادك يا ابنتى أم هو أول الطريق فى مرحلةٍ بين مرحلتين من عالم مجهول إلى عالم مجهول ؟

حدِّثينى حديثك عن دنياك التى كانت ، ودنياك التى تكون ؛ فأنت أقرب عهداً يا بنية إلى ما كان، وأصفى نفساً إلى تصوُّر ما يكون!

هأنذا أرى شفتيك تختلجان وأنت نائمة كأنما تهمسين بسرٍّ فى أُذُن !

وتبسمين أحياناً بسمات غامضة كأنما تستمعين إلى نجوى صامتة فى دنيا الأحلام التى تصل جديدَك فى هذا العالم بماضيك القريب فى العالم المجهول !

وتعبسين أحياناً باكيةً بلا صوتٍ ولا دموع كأنما لا يعنيك أن يسمع أحد أو يرى ؛ لأن الذى تعنين أن يعلم بشكواك ليس خَلْقاً من الخلق ولكنه روح من روح الله ؟

حدِّثينى ماذا ترين يا بُنيَّةُ فى منامك وماذا تسمعين ؟

مَنْذَا يسامرك يا ابنتى فى أحلامك وما عرفتِ شيئاً بعدُ فى دنيانا تؤلِّفين من أشتاته أقاصيصَ فى أحلام !

ليتنى أعرف ماذا كنتِ أمس ؟ وماذا أنت اليوم ؟ وماذا تكونين وتكونُ فى غد !

أطوار ثلاثة فى تاريخ البشرية ليس فى أيدينا من العلم بها إلا اليوم الذى نعيش فيه ؛ أما أمس قبل أن نكون ، وأما غدٌ بعد أن نصير ... !

من يدرى ، من يدرى ؟ إن هنا سرّ الأزل ، وسرّ الأبد ، وبرهان الخلود !

حياة بين حياتين ، ليس لنا من العلم بأولاها إلا بطن الأم ، وليس لنا من العلم بالأخرى إلا بطن الأرض ، ونحن بين الحياتين فى مضطرب مائج لا نكاد نحس إلا ما تقع عليه أعيننا وما تلمس أيدينا ، وإننا على ذلك لنزعم أن لنا الحق فى أن نتحدث عما قبل الحياة ، وما وراء المادة فى جدال السفيه ودعوى المغرور !

* * *

ابنتى طفلة فى المهد لم تتجاوز من العمر فى تاريخ البشرية إلا أياماً معدودة ، ولكنها إلى ذلك كبيرة كبيرة فى نفسى وفى أوهامى ، إنها لم تُولدْ أمس، ولكنها كانت فى رحلة ثم آبت. إنها كبيرة كبيرة لأنها كانت تعيش فى أحلامى منذ سنوات وسنوات . منذ أيقنت أننى يجب أن أكون أباً !

هل كنتِ تسمعين نجواى يا بُنيتى من وراء حدود المجهول وقد جلست ذات مساء أهتف باسمك فى دنيا الأمانى متسائلا : أين أنتِ يا ابنتى ؟ أين أنتَ يا ولدى ؟ أين أنتِ يا زوجى التى لم أرها ولم أعرفها بعد ؟ أين أنتم يا أحبائى ؟

... طفلةٌ هى على حساب الزمن إن كانت سن الحى تُعَدُّ بالسنين والأيام ؛ فكم تكون سنها على الحقيقة منذ كانت أمنيةً تتراءى لى فى اليقظة وطيفاً يلُمُّ بى فى الأحلام ؟

صورةُ إنسانٍ فى بضعة أرطال من لحمٍ ملفّفة فى طيات الفراش ، ولكنها معى أينما كنتُ ، أطوِّف بها ما أطوِّف فى دنيا عريضة من الأمانى والأوهام !

خرساء مالها بيانٌ بعد ، فإذا التقت عينان بعينين فإن بينها وبين نفسى حديثاً أفصحَ من حديث كل ذى شفةٍ ولسان !

طفلةٌ هى إذا نظرتُ إليها فى فراشها هادئة مستسلمة لا تقدر على الحركة ؛ فإذا أغمضتُ عينىّ وسبحتُ فيما أسبح من آمالى فهى غير مَنْ هى : صبيّة تدرج ، أو فتاة تخطر ، أو عروس فى جلوة العرس إلى ذراع عروس . . . !

* * *

تعالى إلىّ يا بُنيتى أضُمُّك إلى صدرى ؛ إننى أنا أبوك ؛ أتراك تعرفين ؟

هاتان عيناك الساجيتان تنظران إليَّ نظرات ليستْ من مثل ما تنظرين إلى أخي وابن عمي ؛ برَبِّك مَن علّمك ؟

انظري إليّ يا ابنتي وأطيلي النظر ، إن في عينيك سرًّا يلهمني ما لم تلهمني مشاهدُ الدنيا جميعاً منذ كنتُ إلى يومَ عرفتُك !

حدثيني حديثك الصامت يا عزيزتي لعلي أستشفّ من وراء حديثك سرَّ المجهول ؛ ما أنتِ ؟ وأين أنت ؟ وما كان ماضيكِ ؟ وكيف تأملين أن يكون غدك .. أأنتِ هنا أم أنت هناك ؟

... شمس تشرق وتغيب ، وليل يطبق وينجلي ، ورياح تعصف وتهدأ ؛ وإنسانٌ يعبس ويضحك ، ومعدة تمتلئ وتفرغ ، وقلب صافٍ صفاء الحق أو عابس عبوس الضلال ، وعيون فيها بريق الشهوات أو فيها دموع الألم ، ووجوه سافرة ووجوه عليها نقاب ... هذه هي دنيانا أيتها الصغيرة ، فما هي دنياك ؟

أتراك تعرفين يا عزيزتي الصغيرة ؟ ... ما أرى صمتك الطويل يا بنيتي إلا حذراً ورقبة حتى تعرفي ما أنتِ في دنياك الجديدة ... ! تُرى من أدبك هذا الأدب يا بنيتي ؟

سائح جوّال رمتْ به الأقدار إلى وادٍ غير واديه ، ودنيا غير دنياه ، وعيش لم يعش مثله فيما استدبر من حياة ؛ ماذا يقول وكيف يتحدث ... أهكذا أنتِ في صمتك يا عزيزتي ؟

* * *

هذه أمك يا صغيرتي ؛ لم تحمل ولم تلد قبلُ ؛ علّميها الأمومة يا صغيرتي ، إنها لم تكن تعرف ...!

ها هي ذي حانيةٌ عليك صابرة على ما تعاني من أوجاع الأمومة الأولى وإن في عينيها لبريقاً لم أرَ مثله فيما رأيتُ من عينيها قبلُ !

مغتبطة سعيدة أن تضمك إلى صدرها في حنان ورقة وإن بها من الآلام ما يذهل كل ذات ولد !

وهاتان شفتاك الصغيرتان تبحثان عن شيء هنا ... مَنْ علّمك أيتها الصغيرة أن هنا أودع الله ما أودع ليكون لك شبعاً وريًّا ؟

ورأيتك تلقمين ثديها مغمضة العينين تناولُ الخبير القطن ، فأحسنتِ الرضاعة ، وما تُحسن أمُّك أن تُرضع !

يا عجبا ! الطفل الصغير يعلّم أمه الأمومةَ قبل أن تتعلم هي أن تكون أماً !

في كل مَرأى عينٍ منك يا صغيرتي درسٌ يهديني ويلهمني !

* * *

هل أنتِ سعيدة بدنياك أيتها الصغيرة ؟ هل تتألمين لشيء ؟ هل تؤملين في شيء ؟ هل وجدتِ الحياة كما علّمك باريكِ الأعظم ؟

مَن لي بأن أسمع جوابَ ما سألت ! ولكن ، لا ، لا ، حسبي الذي أرى ؛ إنك أنتِ أنتِ لأنك لا تجيبين ؛ إنك أنتِ أنتِ لأني لا أعرف من أنتِ ؛ حسبي من العلم ما تلهمني نفسي ؛ إن ذلك أعمق أثراً في جناني من كل بيان !

هذا جسمك ينمو كل يوم شيئاً شيئاً ، وهذه حركاتك تقوى وتشتد ، وهذا صراخك يتنوّع نَبْرُه وتختلف أنغامه ؛ وغداً — إن شاء اللهُ سيكون لكِ غد — ستكبرين يا صغيرةُ حتى تبلغي ما تبلغين ؛ وكم يلذّني أن أتمثلك في خاطري صبيةً وفتاةً وسيدة كما آمل أن تكوني ؛ ولكن شيئاً واحداً هو أغلى من كل ذلك آمل أن يظل معك صبية وفتاة وسيدة ؛ هو قلب الطفلة ، وابتسامة الطفلة ، ونظرة الطفلة ، و ... ، وصمتُ الطفلة حين تضجّ الحياة من حولك وتصطخب ، ويلتمس كلُّ سؤال جوابه ... !

ولكن ، آه ... إن حكمة القادر لتأبى ... !

هكذا كنا جميعاً ، وهكذا صرنا ؛ وكانت لنا حياة أين منها الحياة التي نعيش اليوم !

عيشي لي يا ابنتي واسلمي ، وكوني ما تكونين ؛ فأنت أول مَن أبوّت ، وأنت أول من علمني معنى الحياة ... !

* * *

... لماذا تبكين يا بنية ؟ هأنذا على مقربة منك ، تُعلين عليّ وأكتب ؛ تعالي بين ذراعيّ ، إنهما على ما إنهما ، لأُلين مسًّا على جنبيك من هذا الفراش الوثير !

... تبكين لأني منصرف عنك منذ ساعات إلى أوراق أكتب ؟ من علّمك هذه الغيرة يابنية ؟ إن فيك لَطباعَ الأنثى وإن لم تكونيها بعد !

ابتسمي لأبيك أيتها الصغيرة ؛ لا تبكي ؛ إنني أنا أبوك ؛ لقد تعلّمتُ منذ الساعة ما أنا ، وعرفتُ ما عليّ من واجب ؛ إنني لَكِ منذ الآن ، لا يصرفني شأنٌ من شئون الحياة عن هذا الواجب إلا أن يكون سعياً إلى ما يصلح من شأنك ...

تعالي تعالي علّميني ! إنني أنا والدك ولكنك أنتِ ولدتني يوم وُلدتِ لأنك أنشأتني خَلقاً آخر من يومئذ ...

تعالي ، قبّلي أباك ! .. لا تعرفين ؟.. هذه قبلتي على جبينك يا صغيرةُ تذكرينني بها إلى معاد ؛ وإنها لدين إلى أجل لا بد أن أقتضيه يوماً من شفتيك !

محمد سعيد العريان